فزان بين يدي الفرنسيين والطليان

للأستاذ أحمد رمزي بك

(تتمة)

احتلال فرنسا :

في سنة ١٩٤٠ وقبيل عقد الهدنة بين فرنسا والمانيا دعت الحكومة الفرنسية الجنرال والقائد العظيم فيجان لتولي القيادة العامة وسد ثغرة سيدان ، لقد تحطمت الجبهة وانهدت حصون خط ماجينو في الشمال والزحف الألماني لا يقف وراديو برلين يصيح « لو بعث نابليون من قبره ، لما كان في وسعه أن يغير القدر المحتوم » لقد هزمت فرنسا وتمزقت جيوش الجمهورية .

وكنت جاراً للجنرال كابو وقد زالت الكلفة بيننا وفي عصر أحد الأيام دعاني لمنزله وقال لي إنه يغادر البلاد الليلة إلى مصر فالسودان فأفريقيا الغربية فمراكش إلى فرنسا ، وذلك بناء على دعوة فيجان الذي طلب إليه أن ينضم إلى هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي ، إذن يجب أن يكون بجبهة القتال قبل أربعة أيام قلت « إنكم تنتظرون قرارات حاسمة لإيقاف هذا الزحف المستمر » قال : « إن إنقاذ فرنسا يحتاج إلى معجزة » . إن ذكر أربعة أيام للوصول إلى فرنسا هي التي لفتت نظري ، فهذا القائد يغادر بيروت إلى القاهرة ومنها إلى الخرطوم ومنها إلى وادي حلفا ومنها إلى بحيرة نشاد ثم تمبوكتو ومنها إلى وسط الصحراء ثم الدار البيضاء ليصل في أربعة أيام إلى فرنسا « التي كان يوسعه أن يصلها في ساعات » .

هذا الوقف الحاسم في استراتيجية البحر المتوسط سببه دخول إيطاليا الحرب تلك الدولة التي تملك من المراكز ما يمكنها من أن تشل حركة الحلفاء جميعاً وتجعل من البحر قسمين وتدخل في صميم القارة الافريقية بقطاع يهدد أملاك أمبراطوريتين .

ومن هذا نفهم أول مبرر يدفع الفرنسيين للتمسك بإقليم فزان على أساس أنه على الطريق الجوي بين مدغشقر وفرنسا . وحينما عقدت الهدنة ظهرت حركة الفرنسيين الأحرار التي

رأسها الجنرال ديجول أخذ يسعى إلى جمع شمل الأمبراطورية تحت لوائه فكان أول من انضم إليه الجنرال كاترو بالهند الصينية ولكن موقف اليابان حال دون استمراره فغادرها واتجهت الأنظار إلى منطقة قريبة فكان الكنغو الفرنسي أول القاطعات التي انضمت إلى الحركة والغريب أن الظروف تركت هنالك حاكماً وطنياً من الشعوب الملونة وهو الذي توفي قبل نهاية الحرب بالقاهرة وكان أمل فرنسا يستهدف أن تحتفظ بمكان لها على مائدة الحلفاء ، ولذلك تغير اسم فرنسا الحرة إلى فرنسا المقاتلة وحاول الجنرال ديجول مراراً أن يسمح له بالجلوس مع روزفلت وستالين وتشرشل ، وكان الأولان يعترضان على وجود فرنسا لأنها سلمت ولم تحارب ولذلك اتجهت إرادة فرنسا الحرة إلى تحمل أعباء قتال في أي جبهة وكان أن سمعنا بفرق من المتطوعين وجنود المستعمرات تحارب في صف البريطانيين وبين أيدينا في سوريا ولبنان ذكريات ضباط البر والبحر والجو الذي كانوا يخترقون حدود فلسطين للانضمام إلى قوات فرنسا المحاربة ، وكان أن ظهرت قوات في ميدان سوريا ولبنان ، ثم في الحدود المصرية في بير حكيم حين استبسلت قوة فرنسية أمام قوات تفوقها عدداً عن جنود المحور .

إلا أن العملية الحربية المنفصلة والمستقلة تماماً عن بقية جيوش الحلفاء هي العملية التي قامت بها فرنسا المقاتلة بزحفها من بحيرة تشاد عبر الصحراء الكبرى وانتهت إلى فزان . وهي من أعظم حركات حروب البادية .

ولقد كان رأي فرنسا في الحكم الإيطالي يختلف تماماً عن رأيها اليوم وإليك الدليل من نشرة رسمية لحكومة الفرنسيين الأحرار وسأقرأها بالفرنسية :

Jamais aucune puissance coloniale n' a traité avec aussi peu de pitié, d'humanité ou même simplement de conscience les populations sur lesquelles des traîtres leur donnaient des droits. On n'a jamais spolié, on n' a jamais massacré, on n'a gazé, exterminé un peuple, comme les aliens l'ont fait au peuple tripolitain. Les rapports les plus accablants, les plus topographies les plus significatives s'amoncelaient sur les bureaux de la S. D. H, sans que les Etats Souverains prissent le moindre ombrage de ces horreurs . on devine avec quelle ferveur les Fezzanais attendaient la libération

Nous avons trouvé auprès d,eux non seulement le secours que nous etions en droit d,escompter , mais un appui amical,

كانت مقدمة هذه الحركة . عملية من أخطر العمليات التي مرت في تاريخ حروب البادية ولكنها أشبه بحركة كشفية منها بعملية حربية . فقد قام من الجانب الفرنسي ضابط اسمه جان كولونا دورناقو من ضباط قوات البادية الفرنسيين واشترك معه ضابطان بريطانيان اجتمعا في القطاع الجنوبي حيث تلتقي الحدود بين المستعمرات الإيطالية والفرنسية وحدود السودان وكان هذا في ٤ يناير سنة ١٩٤١ وفي ١١ يناير تمكنت هذه القوة المخاطرة من تدمير مطار مرزوق والسودة بعد أن ظل الضابط الفرنسي كولونا دورناقو تحت وابل رصاص الطليان . وتعرضت بعد هذه الحملة واحة كفرة والجزء الجنوبي من فزان لعدة هجمات سنة ١٩٤٢

وفي أوائل سنة ١٩٤٣ زحفت قوة الجنرال leclerc الفرنسي من الجنوب وأهم أغراضها احتلال فزان وتحريرها وكان مركز التجمع Fort Lamy ثم Faya وأتت المؤن والذخائر وبالسيارات من برازافيل ، وكانت القوة الزاحفة عددها ٧٣٨ ضابطاً ورجلا

وقد اختير موعد الزحف بين شهري نوفمبر وفبراير وفي ٢٥ ديسمبر أذيع أول بلاغ عن العملية يتضمن دخول القوة في يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٤٢ أراضي فزان ، وفي ٣٠ ديسمبر احتلت أم الأرانب بعد مناوشات مع قوة إيطاليا وسلم عشرة من الضباط وأكثر من مائتي جندي وطني وفي الوقت نفسه سلمت البطرون ثم سبها وفي ١٢ يناير سلمت مرزوق .

كان الاستعداد لهذه العملية كاملا من جميع الوجوه وجاءت في الوقت المناسب الذي كان الحلفاء يدفعون بجيوش المحور إلى الحدود التونسية ، ولذلك تمكنت الحملة الفرنسية بعد احتلال فزان أن دخلت طرابلس في ٢٥ يناير ، واحتلت في ٢٦ يناير سنة ١٩٤٣ غد أمس .

وقد اشتركت القوات الهوائية الفرنسية وأبلت في المعارك بلاء حسناً ، ولكن عظمة الحملة فهي في تنظيمها وسيرها وأنها حركة مفاجأة رغم أن الحرب التي واجهت الحملة هي حرب مع الطبيعة أكثر من أنها حرب مع الطليان ، وقد دلت عمليات الصحراء من ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ على أن قيادة الحلفاء كانت تحسب حساباً للمطارات الإيطالية في الكفرة وفي مرزوق ، وقد ذكر الفرنسيون أنهم وجدوا في مطار الكفرة البريد السري الذي كان يرسله حاكم جيبوتي التابع لحكومة فيشي مما يدل على أن مطارات الصحراء كانت تسمح باتصال الإيطاليين بأثيوبيا مع دوننق المحور .

هذه هي العمليات التي أدت إلى دخول الفرنسيين وهي بطبيعتها مكملة لحركات الحلفاء في شمال أفريقيا ، ولقد كانت الأهداف تبدو مستعصية وبعيدة عن التحقيق لو كانت مستقلة تماماً ولكنها كعملية للحروب الاستعمارية الصحراوية تستدعي أن نقف قليلا لنتحدث عن الصحراء .

حروب الصحراء :

للصحراء روعة تحدث عنها الكثيرون من أهل أوربا من رجال الجندية وغيرها . فأفقها تخيل في نظرهم حدود بحر متسع من الرمال يدعو الواقف على شاطئه أن يرى الأخطار فيكتشف فيها ما وراء الأفق أو هي قطعة من عمل الطبيعة تتحدى الإنسان — أقصد الإنسان الواعي — وتدعوه أن يتقدم عليها ويواجهها وينازلها ليكتشف ما تخفيه في أعماقها .

ولذلك كثر عدد الرواد وانتهى الأمر إلى أن أصبح للصحراء حروب ومعارك وأنظمة خلق عليها المستعمرون أهمية خاصة . وكان من أهم مظاهرها وفوائدها أنها تخلق تلك الفئة الممتازة من الرجال الذين تخرجهم مدارس الحروب الأفريقية والآسيوية بتجاربها القاسية . ويعد أفراد هذه الفئة ذخراً لا يقدر بثمن للبلاد التي تملك المستعمرات الشاسعة البعيدة عن العمران والتي يحتاج استتباب الأمن فيها إلى القيام بحملات دائمة ومستمرة ضد أهالي وسكان البلاد الوطنيين الذين يحدثون أنفسهم بالدفاع عن أوطانهم .

فلكي يكون لدينا مثل هذه الفئة الممتازة لقرد العدوان وشره ، يجب أن ندفع بعدد من رجالنا دائماً إلى الأخطار فإن لم تكن لدينا حروب وجب أن نشجع هذا الفريق أن يتطوع خارج البلاد وأن يشترك في أية حروب قائمة بصرف النظر عن ميلنا لهذا الفريق أو ذاك من المتحاربين . إنما يكون غرضنا الأساسي الحصول على تجارب كل فريق وأساليبه في القتال متجهين إلى تربية روح المثابرة في النفوس .

من هذه المدرسة تخرج قواد المستعمرين الذين قادوا الحروب في أوربا وكانوا قوة للبلاد التي ينتمون إليها ذلك لأن وجودهم في جو يدعو إلى تحمل المتاعب ومواجهة الأخطار وأخذ المسئوليات

بثقة فى النفس يخلق فيهم صفات ممتازة أهلها الجرأة على الوقوف أمام عقبات تبدو مستعصية ووسط ظروف تعد خطيرة ثم تعويد النفس على أحد القرارات السريعة الحاسمة وتنفيذها وهى صفات تبدو فى كثير من الأمم وكأنها قد فقدتها مع اليوم الذى فقدت استقلالها فيه .

وليس معنى هذا أننا معاشر الشعوب الإسلامية فى تاريخنا الطويل المملوء بالحروب الخالية سواء فى آسيا أو أفريقيا لم نذق طعم الانتصار وحلاوته ، بل كان لدينا من هذه الفئة الممتازة كثيرون ، ومنهم من لا يمكن مقارنته بغيرهم من الرجال الأوربيين نظراً لتفوقه ، ومنهم لا يقل فى صفاته عنهم .

ولقد كان من أسلافنا من قادوا الحملات عبر الصحراء عدة مرات ودانت لهم القارة الأفريقية بحسب الأساليب التى كانت متبعة فى عصرهم فهناك حملات من الشمال إلى الجنوب عبر الصحراء الكبرى وحملات من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب قام بها أسلافنا من الرابطين والموحدين على شكل أوسع وأعظم مما يفتخر به قواد المستعمرين من الإيطاليين والفرنسيين . ولكننا اليوم مضطرون أن نأخذ من الغرب وأن نتتبع خطواته ، وأن ندرس هذه الحملات وتقلدها حتى أساليب القتال على أراضينا وأوطاننا .

بعد مضى سبعين عاماً على حملة فرنسا التى ساقتها على الجزائر أى فى سنة ١٩٠٠ احتلت القوات الفرنسية القيمة فى جنوب الجزائر واحة عين صلاح ، وكان هذا الاحتلال بمثابة فتح جديد قابله العالم بدهشة زائدة ذلك لأن فرنسا فاجأت العالم بإنشاء قوة عسكرية جديدة للبادية يرجع الفضل فى تدريبها وتهيئتها إلى الماجور لابرين فهذه القوة أشار إليها جرانزياني فى كتابه عن إخضاع ليبيا وقال إن إيطاليا أدخلت هذا النظام لديها وزادت عليه فتولى قيادة رجال البادية الفوق داوستى الذى أخذ هذا العمل بجد ولا أزال أذكر حديثه عن الأيام التى قضاها وسط الصحراء وكيف أنه كان يعبر عن حنينه الدائم وهو فى أوربا عن أيامه فى تلك البقاع .

والتكلم عن قوات البادية وتنظيمها لا بد أن يذكر العمل الذى قام به الماجور جلوب باشا المسمى بابى حنيك فى بادية الشام، فهذه وإن كانت بعيدة عن فزان إلا أنها نوع من أعمال الأوربيين يستحق اهتمام أولى الأمر وتفكيرهم .

ماذا نستخلص من محاضرة فزان :

أولا : اهتمام الدول الأوربية بالصحراء الأفريقية مما يتطلب منا ضرورة التعجيل بإنشاء معهد الصحراء للدراسة مستقبل الصحارى فى بلادنا وفى القارة الافريقية وفى آسيا خصوصاً جزيرة العرب .

ثانياً : اهتمام الدول الاستعمارية بطرق المواصلات عبر الصحراء وهى مواصلات برية وهوائية .

فالأولى ستعود بنا إلى طرق القوافل القديمة فعلينا أن نستعد من الآن على دراسة هذه الطرق ورسمها على الخرائط ثم العمل على إعادتها واكتشاف مواقع المياه فيها ، أما الطرق الهوائية فأول واجب يحتم علينا إنشاء مطارات حديثة فى مناطق الواحات المصرية حتى تكون دائماً على استعداد للمساهمة مع الآخرين فى تعمير الصحراء .

يسير العالم بخطوات سريعة نحو توطيد سيطرة الدول الأوربية مرة أخرى على المشارق والمغارب ، ومشكلة فزان إحدى المشاكل المرتبطة بمستقبل ليبيا ، وقد ظهر للعيان كيف تطورت السياسة العامة بالنسبة لإيطاليا فهى قد كانت تقبل منذ سنتين مساعدة الدول العربية بأسواتها لاستعادة الأرتيريا والصومال فى مقابل الاعتراف باستقلال ليبيا كاملا ، أما اليوم فلا أدرى هل تقبل ذلك ؟.

من الناحية الفرنسية يبدو لنا أن فرنسا تحاول أن تعمل على إعادة نفوذ إيطاليا كاملا ، وفى هذه الحالة هل تسلمها حدودها القديمة أم تقتطع فزان ، وإذا سلمت لها بفزان هل تحتفظ بـ ١٠٠ ر ٠٠٠ كيلو متراً من الأراضى التى سلمها لاقال إلى موصوليني ؟ وما هو موقف الإنجليز أمريكان ؟...

إن موقفهم يتلخص فى الاحتفاظ بالمراكز الاستراتيجية .

ولا يوجد شك فى أن بريطانيا لها مراكزها فى برقة كما لا يوجد شك فى أن أمريكا لها مراكزها فى طرابلس .

فى مصلحة من استقلال ليبيا موحدة . .

هذا ما تمليه تطورات السياسة العالمية ومقدار الثقة التى يحصل عليها أهل ليبيا وبرقة أنفسهم .

أما أهل فزان فداخل السور الحديدى أملاك شائكة وجنود السنغال ، مثلهم كمثل ملايين من بنى آدم لا يتمتعون بما يسمى حقوق الإنسان : تحرمهم منها أمم كانت هى أول من نادى بحرمة حقوق الإنسان .

أحمد رمزى